

آفـاق اجتماعية

مهام الأدب في الواقع المصري:

من مرايا الحاضـر إلى آفـاق المستقبل

العدد السادس
أبـريـــل 2024

دورية تصدر عن مركز المعلـومـات ودعـم اتخـاذ القرار التابع لمجلس الـوزراء المصــري

آفاق اجتماعية

سلسلة دورية تصدر عن مركز المعلومات ودعم اتخاذ القرار التابع لرئاسة مجلس الوزراء، ويُشارك في إعدادها نخبة من المفكرين والباحثين، تقدم مجموعة متنوعة من الرؤى والتحليلات بشأن أبرز القضايا الاجتماعية والثقافية التي تهم المجتمع.

العدد السادس - أبريل 2024

المحتـويات



النقد والأدب والمجتمع: جدلية التأثير والتأثر

أ. د. محمود الضبع
أستاذ بكلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة قناة السويس بالإسماعيلية

الأدب منتج إنساني.. ومهما بدا أنه نتاج فردي، فإنه بصيغة أو بأخرى لا يكون منفصلًا عن وعي المجتمع المحيط به، إن اتفاقًا أو اختلافًا مع أنماط وأنساق هذا المجتمع.

ومن هنا يكتسب الأدب هويته التي يمكن عبرها التمييز بين الأدب العربي وغيره من الآداب: الغربي (الأوروبي أو الأمريكي)، والشرقي الآسيوي (الياباني أو الصيني أو الكوري)، وهكذا.

هذه الهوية في معظم جوانبها هي نتاج الخصوصية الثقافية للمجتمعات، والتي يمكن تمثيلها وتمثُّلها من خلال عدة عناصر تتضافر لإنتاج هذا الأدب وتتجلى عبره، وهي:

اللغة، وجملة الأعراف والتقاليد، ومنظومة القيم على اختلاف أنواعها (الأخلاقية والثقافية والاجتماعية)، والموروث الفكري والديني، وغيرها من العناصر التي تشكل في إجمالها مفهوم الهوية، والتي لا يمكن وجودها بالفعل إلا عبر مجتمع له أبعاده وملامحه.

وعبر التاريخ كانت هناك علاقة حتمية بين مفهوم المجتمع ونتاجه الأدبي، فحتى أبسط أشكال المجتمعات (القبلية أو الريفية أو الصحراوية) كان لها نتاجها الأدبي متمثلًا في القصص والحكايات الشفاهية والأمثال والحكم والمواويل والأغاني الشعبية والسير والأساطير، وغيرها من فنون الأدب المعبرة عن سياقات المجتمع والمصاحبة لتطوره ومسيرة وجوده.

وكما أن الأدب هو نتاج المجتمع فإنه يمكن النظر كذلك إلى حركة تطور المجتمعات باعتبارها نتاجًا للأدب أيضًا.

ويمكن التدليل على ذلك من أقرب الطرق برصد علاقات التأثير التي أحدثتها فنون السينما والمسرح (وبخاصة في الأعمال المأخوذة عن النصوص الروائية والقصصية) في المجتمعات العربية منذ مطلع القرن العشرين وصولًا إلى لحظتنا الراهنة.

كما يمكن أيضًا رصد أثر الشعر في المجتمعات العربية سواء في تنمية الوجدان والحس الوطني المصاحب للحراك النضالي ضد الاستعمار، أو تأثيره في الوجدان العاطفي وترقية المشاعر والذوق، أو تأثيره في اتخاذ المواقف من القضايا والموضوعات المطروحة على الساحة.

ولأن الأدب مرتبط ارتباطًا كليًّا بالنقد المصاحب له في جدلية تأثير وتأثر كما تدلنا عليه أقدم صيغ تداوله منذ العصر الجاهلي، فإن المثلث سيكتمل برصد هذه العلاقة الجدلية بين النقد والأدب والمجتمع، فإذا كان النقد يحلل الأعمال الأدبية بهدف الكشف عن أبعادها التشكيلية والجمالية، وعلاقاتها المتشعبة والمتقاطعة مع المجتمع، ويرصد الملامح العامة لحركة الأدب في مراحله الزمنية، فإنه من جهة أخرى يسهم في فتح الآفاق أمام الإبداع الأدبي ذاته للتعبير عن المجتمع وقضاياه، وبذلك تتشكل البنية الدائرة بين الأدب والنقد والمجتمع، في علاقاتها التبادلية بما تشمله

من تأثير وتأثر. وهو ما يمكن رصده عبر العديد من المظاهر التي شهدتها الحياة في تاريخنا العربي المعاصر. ومنها على سبيل المثال:

الاتجاهات النقدية التي تنظر للأدب إجمالًا بوصفه انعكاسًا للواقع المحيط بالأديب وبظروف إنتاج النص الأدبي ذاته. مثل النقد الاجتماعي، الذي يحلل النصوص الأدبية ويفسر معطياتها في ضوء العودة للواقع الخارجي، والبحث عن مرجعياته الواقعية في المتن والهامش.

والنقد الواقعي الذي يبحث في الأبعاد الجمالية للنص للكشف عن المضامين المرتبطة بالواقع. وقد أفاد هذا النقد المجتمع (على ما يشمله من أدباء وكتاب وأشخاص عاديين) بما روج له من أفكار ومعطيات علم الجمال. وبخاصة التي ترى أن الرؤية الجمالية تكمن ليس في تصوير الواقع كما هو في ذاته. وإنما بوعي جمالي ويقظة العالم. وهو ما أثَّر في المقام الأول على التوجهات الأدبية للكتّاب أنفسهم كما يمكن رصده في مصر والوطن العربي بدءًا من الجيل السبعيني لكتابة الشعر والرواية والقصة والمسرحية والسيناريو (السينما ومسرح العرض). إذ تختلف توجهات وقضايا الإبداع لدى هذا الجيل عن سابقه من جيل الستينيات الذي كان ما يزال يحمل بقايا الوعي الكلاسيكي والرومانسي.

وامتد تأثير هذا النقد الواقعي خارج حدود الأدب ليشمل السينما والمسرح والفنون والسياسة والاقتصاد وعلوم التسويق وجميع قطاعات المجتمع التي غدت تسعى نحو تقديم صورة جمالية عن الواقع بمعطيات النقد الأدبي. وهو ما يمكن الوقوف عليه في التجارب النقدية لمحمد مندور (١٩٠٧ - ١٩٦٥)، ومحمود أمين العالم (١٩٢٢ - ٢٠٠٩)، وعبد العظيم أنيس (١٩٢٣ - ٢٠٠٩)، وحسين مروة (١٩١٠ - ١٩٨٧)، وغيرهم كثير ممن أثّرت كتاباتهم في المجتمعات العربية بقوة.

وكانت إحدى الأفكار الرئيسة للنقد الواقعي هي انتصار العقل على الأوهام، وهو ما كان له تأثير مباشر على الأدب والأدباء العرب، وعلى الممارسة الاجتماعية في واقع الحياة ذاتها؛ حيث تعددت الاتجاهات والمداخل أو المدارس الواقعية، بين: الواقعية الاشتراكية، والواقعية النقدية، والواقعية الأدبية.

فقد تمثلت المبادئ النقدية للواقعية الاشتراكية في إعراضها عن العالم المثالي وانحيازها للتعبير عن الطبقة العاملة، وللأيديولوجيا، والفلسفة المادية التي رأت أن الوجود المادي سابق على الوعي المادي، وكل ذلك كان له أثر في تحول المجتمعات ذاتها وليس الأدب فقط من الاعتماد على التأملات الفكرية المغرقة في الذاتية، إلى الاعتماد على الوجود المادي وتناول قضايا الواقع وحياة الناس الواقعيين، وهو ما يمكن الوقوف عليه في الأعمال الإبداعية لنجيب محفوظ (١٩١١ - ٢٠٠٦)، ويوسف إدريس (١٩٢٧ - ١٩٩١)، وإحسان عبد القدوس (١٩١٩ - ١٩٩٠)، وتوفيق الحكيم (١٨٩٨ - ١٩٨٧)، وخيري شلبي (١٩٣٨ - ٢٠١١)، وغيرهم (ومعظمها حُوِّل إلى أفلام سينمائية)؛ حيث تحولت أعمالهم منذ أواخر الستينيات لتكشف عن جوانب



عديدة في واقع المجتمع المصري وقضاياه، وهو ما تكفَّل به النقد والدراسات النقدية، أولًا في فتح آفاق هذه التوجهات في الكتابة أمام المبدعين (نقلًا عن المدارس النقدية العالمية والواقعية الاشتراكية في روسيا على وجه الخصوص)، ثم في تأثير تلك الدراسات التي تناولت هذه الأعمال في المجتمعات العربية عمومًا.

وكان تأثير النقد الواقعي في المجتمع أكثر فاعلية لارتباطه بفن القصة والرواية، وهما فنان رائجان على مستوى المقروئية أولًا، وثانيًا هما الفنان اللذان تعتمد عليهما السينما والدراما التلفزيونية منذ النشأة وحتى لحظتنا الراهنة، ومن المعروف واقعيًا أن السينما والتلفزيون لهما التأثير الأكبر في تشكيل وعي الشعوب منذ النصف الثاني من القرن العشرين وحتى الآن، وهو ما يجعل النقد ذا تأثير في المجتمع عبر هذه البنية الدائرية إجمالًا. فالنقد المصاحب لأعمال محفوظ وإدريس وعبد القدوس المشار إليها سابقًا، أدى إلى تغيير نظرة المجتمع للمرأة مثلًا، ولمفاهيم السلطة والمجتمع وبنية الأسرة والعلاقة مع الآخر وقضايا الصراع الحضاري، وغيرها من أبعاد لو لم تكن هناك آفاق نقدية لما كان لها تأثير في المجتمع، وهو ما يمكن تأكيده من خلال مقارنة الوضع المصري في القرن العشرين قياسًا إلى أوضاع البلدان المحيطة التي خلت من حركة الرواج الأدبي والنقدي المصاحب لها.



فإذا انتقلنا زمانيًّا من منتصف القرن العشرين وهيمنة التيارات الواقعية، إلى أواخر هذا القرن ومطلع القرن الحادي والعشرين، سنجد هيمنة لتيارات نقدية كان لها أكبر الأثر في التحولات التي لحقت الأدب وأثرت في توجهات المبدعين وفي المجتمعات العربية إجمالًا، وهي التي يشملها النقد الثقافي والدراسات الثقافية، وإن كان ظهورهما في الغرب يعود إلى الستينيات وليس أواخر الألفية الثانية كما حدث في الوطن العربي.

وقد بدأ التوجه نحو «الدراسات الثقافية» -عالميًّا في مدرسة برمنجهام- بوصفها حقلًا معرفيًّا ومدخلًا للتحليل الثقافي من المنظور الاجتماعي السياسي، وبدأت هذه الدراسات في سياق الأدب والنقد الأدبي على وجه الخصوص، انطلاقًا من النظر إلى النص الأدبي بوصفه نتاجًا لروافد متعددة تتقاطع فيها علوم التاريخ واللغويات والفلسفة والاجتماع والتحليل النفسي؛ وهو ما جعل النص ينتقل من كونه تأصيلًا لتراث، إلى كونه موضوعًا للنقاش، أي النظر إليه ليس في إطار رموزه ودواله المكتوبة فقط، وإنما في تقاطعاتها الثقافية مع ما هو خارج النص، من كل معطيات الحياة المرصودة وغير المرصودة في الدرس العلمي والأكاديمي.

وقد تجاوزت الدراسات الثقافية النقدية حدود دراسة الخطاب الثقافي الواحد في مجتمع واحد، إلى دراسته في سياق تفاعله مع الخطابات المثيلة له والمتفاعلة معه في الحاضر، وبخاصة مع ما يشهده العالم الآن من تحكم المعلوماتية والتكنولوجيا في صياغة مفهوم الثقافة ذاته، وفي إعادة صياغة مفاهيم الحياة على نحو لم يكن مسبوقًا من قبل.

فعلى سبيل المثال، استطاع فرع النقد الثقافي، أن يتجاوز حدود دراسة الجمالي النصي (المتمثل في دراسة الأبنية اللغوية والأسلوبية للنص الأدبي أو المقالة أو الكتاب أو الخطاب أو المقابلة الإعلامية)، إلى دراسة النص في ضوء الثقافة التي أنتجته،



والكشف عن الأنساق الفكرية الكامنة وراءه، ثم عن علاقة هذا النص بالإنتاج الثقافي الحاضر.

وبهذا المعنى فإن النقد الثقافي يركز على الخطابات الأدبية (النصوص الأدبية والفنية بتنويعاتها المختلفة والمتنوعة) في تقاطعاتها مع الأنساق الثقافية المضمرة (غير الواعية)، والأنساق الثقافية المعلنة (الواعية)، وهو ما يمكن الوقوف عليه تطبيقيًا في:

الدراسات التي أُجريت على بعض أعمال نجيب محفوظ القصصية والروائية -مثلًا- لرصد تقاطعاتها مع التيارات والروافد الفكرية والفلسفية، والاجتماعية والتاريخية، والسياسية والأيديولوجية، والفنون.

ودراسات قضايا النسوية في أعمال المبدعات والمبدعين الذين تناولوا النسوية في أجيالها الأربعة، وبخاصة الدراسات التي أُجريت على النصوص الأدبية المعاصرة لكشف هيمنة الذكورة على المجتمعات، مثل الدراسات العديدة في أعمال أديبة/ أديب، للوقوف على أوضاع المرأة العربية في الأقاليم الثقافية المختلفة، أو الوقوف على قضايا الفقر وعمالة الأطفال، وهي ذات صلة بالنسوية في تطورها.

ومثل الدراسات التي اهتمت بنظريات الفن والأدب والسياسة والاجتماع والإعلام والترجمة والاقتصاد السياسي، واتجاهات نقد السينما والفنون البصرية، وغيرها من ممارسات نقدية عديدة، لها صلة مباشرة بالمجتمعات التي يعاد بناؤها الآن بفعل التكنولوجيا والميديا والتطور المعلوماتي التي تخرج على العالم كل يوم بجديد، مثل: الميتافيرس، والذكاء الاصطناعي وتطبيقاته التي تتطور على نحو غير مسبوق في تاريخ التطور لأي منتج بشري.

والمثال الأخير الذي يمكن أن نسوقه هنا سيتعلق بالأدب الشعبي والدراسات المعنية بالثقافة الشعبية، تلك التي لم تعُد قادرة على الانغلاق

على ذاتها أو الاحتكام إلى الأطر المعرفية لحقل تخصصي واحد فيها، وإنما غدت مجبرة على الجمع بين نظريات متعددة وحقول معرفية متنوعة (التحليل النفسي، ونظريات الأدب، ومداخل تحليل الفنون، والتاريخ، والتحليل الاجتماعي... إلخ)، ذلك أن أي ظاهرة ستخضع للدراسة، فإنها تتقاطع بالضرورة مع هذه المداخل، وبالتالي لا يمكن فهمها دون العودة إلى المنجز المعرفي والمنهجي لتلك المداخل، وهو ما أثَّر على مبدع وفنان ودارس الأدب الشعبي.

كل ذلك كان له تأثيره على وعي الكتاب أنفسهم، وهو ما يمكن رصده -مثلًا- لدى التحولات التي طرأت على كتّاب أجيال السبعينيات والثمانينيات الذين غيروا من مسارات كتابتهم وشكلها ومضمونها تأثرًا بالتيارات النقدية المعاصرة والمرتبطة بالنقد الثقافي والدراسات الثقافية هنا، مثل الأعمال الروائية والشعرية الصادرة في الألفية الثالثة لإبراهيم عبد المجيد (ولد ١٩٤٦)، وجمال القصاص (١٩٥٠)، وفاطمة قنديل (١٩٥٨)، وسيد الوكيل (١٩٥٣)، وسلوى بكر (١٩٤٩)، وسمير الفيل (١٩٥١)، والسيد نجم (١٩٤٨)، وهالة البدري (١٩٥٤)، وإيهاب البشبيشي (١٩٦٤)، وغيرهم عشرات ممن استطاع استيعاب التطور الفكري والخطاب النقدي المعاصر ليقدم نصًا جديدًا يواصل فيه مسيرة إبداعه بما يتناسب وهذا التطور.

أما الأجيال الأحدث من هؤلاء فقد كانت علاقتهم بهذه الخطابات النقدية أكثر استجابة، وبخاصة مع حركة الانفتاح التي تتيحها الميديا ووسائل التواصل الاجتماعي، وما يحدث فيها من تفاعلات ثقافية ونقدية عبر الميديا، إضافة إلى إمكانات الترجمة الفورية والآلية للاطلاع على تطور الخطاب النقدي عالميًّا، وهو ما فتح الآفاق واسعًا أمام إمكانات عديدة في تطوير الأدب ذاته (بتنويعاته الواسعة من كتابة وسينما ومسرح).

لقد ساعدت الاتجاهات والمداخل النقدية على تفكيك مفاهيم عديدة كانت تعاني منها المجتمعات العربية في وعي المبدع والإنسان والعامة، من قبيل أفكار الاستعلاء على الآخر، ومفاهيم العمل (لدى بعض الشعوب التي كانت تترفع عن ممارسة بعض الأعمال باعتبارها دون المستوى)، ومفاهيم المرأة ومشاركاتها السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وغيرها من مشكلات كانت تعاني منها الشعوب العربية حتى زمن قريب، غير أن الأدب إجمالًا بصورته المكتوبة، أو صوره المرئية والبصرية والحركية (سينما، مسرح، تلفزيون، ميديا معاصرة عبر مواقع التواصل الاجتماعي)، والنقد المصاحب لكل ذلك في صوره





المتعـددة أيضًا (النقـد المكتـوب، والنقـد الشـفاهي في الفعاليات والأنشـطة، وحلقات النقـاش الفـردي أو الجماعي عبـر البودكاسـت واليوتيـوب، وممارسـات السوشـيال ميديا)، إضافـة إلـى الجماعـات النقديـة والفكريـة العديـدة عبـر الإنترنـت... كل ذلـك أسـهم وسيُسـهم فـي التأثيـر علـى الأدبـاء وتوجهاتهـم، والأدب واتجاهاتـه، والمجتمعـات العربيـة ووعيهـا، وعلـى توجيـه الـرأي العـام فيهـا. فالصحافـة ووسـائل الإعلام الرسـمية -مثلًا- لا تسـتطيع اليوم أن تؤثر في الـرأي العـام مثلما تفعـل السوشـيال ميديا، وإن كنـا هنـا نعنـي فقـط الوعـي النقـدي بالمفهـوم الأوسـع والأشـمل للنقـد الـذي يتعامـل مـع الحيـاة بوصفهـا نصًّا مفتوحًا قابلًا للقراءة والتأويل والتحليل النقدي مـن مداخـل متعـددة.

وختامًا، فسـوف تتطـور سـلطة النقـد في المجتمـع، نتيجة لتوسيع مفهوم النقـد من جهة، ونتيجة لتعدد المنابـر التي أتاحتهـا الميديـا مـن جهـة ثانيـة، والتي تمـارس طـرح وجهـات نظرهـا في القضايا المحيطـة والراهنة، ومنها الفنون والآداب والقضايا الاجتماعية، وهي منابر لا يمكن في الإجمال الحكم عليها سلبًا ضمـن مـا أحدثتـه مواقـع التواصـل الاجتماعـي مـن تشـويش؛ إذ إن بعضها ينطلق بالفعل من خلفيات معرفيـة ووعـي جـاد يمتلـك مـا يمكـن تقديمـه، ولـه تأثيره في المجتمـع، مع الوضـع في الاعتبار أن راهن الحيـاة فـرض علـى المجتمعـات صيغًـا جديـدة فـي تصنيفها إلـى شـرائح تختلـف نسـبيًّا عـن المـدارس والاتجاهـات والتيـارات المتعـارف عليهـا، وبالتالي هي تصنـع مـن داخلها شـكل وصيغـة النقـد المتناسـب معهـا، مثـل شـعراء الهايكـو العربـي مثلًا، وتوجهاتـه النقديـة، تلـك التـي نشـأت عبـر الفضـاء الإلكترونـي مـن الأسـاس، وبالتالي فـإن غيـر المتواصـل مـع هـذا الفضـاء، أو المكتفـي بالقـراءة الورقيـة فقـط، فإنـه لـن يكـون علـى دراية مـن الأسـاس بهـذه الاتجاهـات وتأثيراتهـا.



مركز المعلومات ودعم اتخاذ القرار بمجلس الوزراء

الحـي الحكـومـي – العاصمـة الإدارية الجديدة

رقم بريدي: 11582 ص.ب: 191 مجلس الشعب

تليفون: 27929292(202) فاكس: 27929222(202)

 info@idsc.gov.eg

 www.idsc.gov.eg



